مهرجان بغداد للصحافة

كلية الإعلام تمد جسراً بين الدرس الأكاديمي والعمل المهني

جوائز للصحفيين وأخرى للصحف المتميزة... وحصة (المدى) هي الأكبر

سعيد عبد الهادي
عبد الحسين بريسم

احمد السعداوي

عبد الكريم السوداني

عبد الكريم العبيدي

التقاليد المفتقدة

أكثر من مائة وخمسين صحيفة في بلد عاش الردح الأطول من تاريخه المعاصر ينظر في صحيفة واحدة، برغم تعدد أسمائها (ثورة، جمهورية، عراق، قادسية)، هذا الأمر يؤكد أن ما كان ينقصنا هو فسحة الحرية (الضيقة) هذه، وليس الخبرة الصحيفة، نعم لم تمتلك مؤسسة كالأهرام لها من العمر ما يفوق القرن، وبالتالي ليست هنالك تقاليد صحيفة راسخة يستطيع المبتدئ (الهاوي) أو المحترف الركون إليها، برغم إننا أطلقنا صحيفتنا الأولى قبل أكثر من قرن، ولكن كانت الصحف تتبدل بتبدل الحكومات، حتى استحالت أبواقاً للسلطة، وليست لسان حال للشارع أو نافذة لرؤية المشاكل الحقيقية للبلد، وفي ظل هذه (الثورة) الإعلامية التي يشهدها البلد، وفي محاولة لتعزيز الأقلام الصحفية الموهوبة أقامت كلية الإعلام مهرجاناً للصحافة تحت اسم (مهرجان بغداد)، وقامت لجنة من الأساتذة في الكلية ومن الصحفيين المحترفين للكتابات الصحفية في مختلف مجالات العمل الصحفي، وتقييمها ومنح الجوائز لأصحابها، ممن استطاعوا أن يقدموا أعمالاً متميزة، فضلاً عن الجوائز المقدمة للصحف التي جسدت فاعلية الأداء الصحفي، في هذه المرحلة، واستطاعت أن تتميز بخطها (توجهها) الخاص، وإذا كانت صحيفة (المدى) واحدة من ثلاث صحف حصلت على درع المهرجان، فإن (كادرها) الصحفي استطاع الحصول على ثلاث جوائز، وهو أكبر عدد من الجوائز تحصل عليه صحيفة واحدة.

تقليد سنوي

لمعرفة طبيعة هذا المهرجان التقينا الدكتورة حميدة سميسم عميد كلية الإعلام، التي حدثتنا عن ظروف الإعداد بالقول:

- في ظل ظروف قاسية وإرهاب مستمر، وظلام يحاول حجب كل نور عن أعيننا حاولنا، أن نشعل شمعة، فجمعنا لجنة من الأساتذة، وبعض الصحفيين، وبعد الترحيب بالفكرة، فاتحنا بعض الصحف العراقية لدعمها، فدعمتنا مادياً ومعنوياً، وتعاون الصحف مع الكلية زاد في عزيمتنا على إنجاحه وإخراجه بأبهى صورة، تعمق المسؤولية الحقيقية للكلية في ظل التكالب الإعلامي الذي نعيشه حالياً من قبل معظم وسائل الإعلام العربية التي غيبت الوجه المشرق للمرحلة الحالية مؤكدة على الجوانب المظلمة فحسب. وسوف يكون مهرجاناً سنوياً للاحتفال بالإبداع الصحفي العراقي، ولترسيخ العلاقة بين الأكاديمية والمهنيين، فضلاً عن السعي الجدي لتطوير الخبرات في مجال العمل الصحفي، وصقل المواهب من خلال ما يفتحه التنافس من دافع للصحفيين، ونحن نمتلك خبرات لا تقل عن مستوى الخبرات في معظم بلدان العالم العربي.

وعن لجنة التحكيم وممن تألفت، قالت:

لقد شكلت اللجنة من أساتذة من داخل الكلية، فضلاً عن الصحفيين الكبار ومن مختلف الاتجاهات السياسية والصحفية. لهذا جاءت النتائج موزعة على مجموعة صحف لها تقاليدها في العمل الصحفي برغم تاريخها القصير، واختتمت حديثها بالقول: جاء هذا المهرجان لتسليط الأضواء على صحافة العراق الجديد، عراق ما بعد الديكتاتورية.

التقليد الجديد والخبرة التنظيمية المحدودة

الدكتور جعفر صادق محمد عضو اللجنة التحضيرية، الذي تحمل العبء الأكبر في إدارة هذا المهرجان، حدثنا عنه بالقول:

- الفكرة ولدت في قسم العلاقات العامة، وتبنيناها لأننا رأينا إنها ترسي تقليداً جديداً في حياتنا الأكاديمية والمهنية، وتشكل لبنة في بناء عراق جديد، وكانت عقبتنا الاساسية هي التمويل، ففاتحنا المؤسسات الإعلامية وكان لدعم كل من (المدى)، والصباح، والزمان وبغداد، الفضل الأكبر في إقامة هذا المهرجان، وكان أمر انعدام الخبرة التنظيمية عاملاً آخر لم يذلل إلا بجهود مضنية. وختم حديثه بالقول: نأمل أن تكون المؤسسات التي ساهمت في إنجاح هذا المهرجان قدوة للمؤسسات الإعلامية الأخرى، في سبيل المحافظة على هذا المهرجان وإدامته.

أما في أروقة الكلية، فقد رأت فيه الطالبة (مها أحمد) حافزاً يدفعها للاجتهاد في سبيل أن تكون أحد المشاركين فيه، أما الطالب (خالد رحمن) فقد رأى إن انعقاد هذا المهرجان في مثل هذه الظروف، هو بحد ذاته عمل إبداعي أثار حماسة الكثير من طلبة الكلية للدخول الفاعل في فضاء العمل الصحفي. أما الأديب (مؤيد البسام)، فذهب إلى القول بأن مهرجاناً كهذا لو عقد في مصر لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، وكل ما نرجوه أن نتعلم منهم صناعة النجوم في كل مجال.

ثلاث جوائز لـ(المدى)

كانت الجائزة الأولى في التحقيق الصحفي للزميل (احمد سعداوي)، والجائزة الثانية للزميل (عبد الكريم العبيدي)، اما الزميل كريم السوداني فقد حصل على الجائزة الثانية عن تقريره حول وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، ولا شك في صعوبة المجالين وفي الجهد الكبير الذي يتطلبه الخوض فيها، لهذا حاولنا أن نتبين طبيعة هذا الجهد من خلال رصدهم الذاتي لهذه المعاناة، وكذلك نظرتهم للجائزة.

أحمد سعداوي

اللغة المضغوطة.. والحقيقة المغيبة

تحدث سعداوي عن الجائزة والتحقيق.. قال:

جاء فوزي بالجائزة الأولى في مجال التحقيق الصحفي في مهرجان بغداد للصحافة الذي أقامته كلية الإعلام ببغداد، ليمنحني دافعاً معنوياً من أجل الاستمرار في العمل بالمستوى الذي تستحقه الجائزة. وأتمنى أن تتمسك كلية الإعلام بهذه المسابقة، وإقامتها سنوياً.. كي تكون تقليداً أكاديمياً يدفع نحو تحسين مستوى الأداء الإعلامي، ويمنح المتسابقين دافعاً معنوياً يستحقونه. خصوصاً إننا نعيش في فضاء جديد، لم تعد لمحددات الخطاب السلطوي أية هيمنة على الفضاء الإعلامي.

شخصياً برغم ثقتي بالمادة التي اشتركت بها في المسابقة، إلا أن ظني كان أن زميلي عبد الكريم العبيدي وهو من سيحظى بالجائزة الأولى، لما أعرفه عنه من تفان وإبداع في تحقيقاته الصحفية.. وإنني سأنال الجائزة الثانية في أفضل الأحوال.

كانت المادة التي اشتركت بها في المسابقة تحقيقاً بعنوان (الأهوار.. عادت ولم تعد) وقد نشر قبل عام في العدد الأول لجريدة (المدى). وحين استذكر الرحلة التي قمت بها إلى محافظة ميسان والأطراف المتعددة التي تأسس عليها التحقيق.. أتذكر مجموعة من الدروس تحصلت لدي بعد أن رأيت التحقيق منشوراً على صفحات المدى. الدرس الأول.. إن المعرفة رحلة.. ولكي تتعرف على الحقيقة.. ستجد أن جذاذاتها متناثرة في أكثر من موضع، وعليك أن تجمعها.. وهذه هي مهمة المحقق الصحفي الأساسية.. الدرس الثاني علمني إياه أستاذي العزيز سهيل سامي نادر.. (عليك أن تضغط اللغة...وتتخلص من الزوائد) هكذا كان يكرر أمامي.. وأخشى أنني مازلت حتى هذه اللحظة بحاجة إلى التخلص من الزوائد.

الدرس الثالث. يتعلق بمناخ العمل الصحفي.. فوجودك بين كتاب بارعين وأقلام رصينة ذات حرفية عالية.. يجعل الرضا عن النفس وعن عملها.. شيئاً صعباً.. يدفعك للتأمل وبذل أقصى الجهد للوصول إلى الأفضل.. وهذا ما تهيأ لي في قسم التحقيقات بجريدة (المدى).

عبد الكريم العبيدي

أوهاج التجربة في (صالات المرمر)

ويتحدث عبد الكريم العبيدي لنا قائلاً:

قصور صدام، أو صالات المرمر، كما أسماها الأستاذ سهيل سامي نادر. هي متجسدات كارتونية لأهواء مقملة، تنفست برئة ملوكية زائفة، فتأسست على باطل، فهلكت وأهلكت.

هل هذه فتوى؟

كلا.. إنني أشرح أمسها الآن فقط.. أشرح أمسي الذي سرقته، أمس الذي دفنته في خرائطها، فصار جزءاً من لمعان مرمرها!

ولكن لم لا يكون هذا هو أمسها الآن ايضاً؟... اليست هي مخلوقات مسخرات أريد لها معنى غير ذلك المعنى الذي كان يجب أن يكون؟!

إنها دمنا المهدور، وتصوراتنا المبددة، وتحولاتنا التي لم تتحول!... كتب لها أن تشرئب كالأعناق ثم تتحطم أو تهدى "لهم" بثمن بخس.

نهايات تشبه بداياتها، لا يعثر الغاطس فيها إلا على ركام من الضحايا.. ولا يرفع المدفون فيها إلا أصبعاً واحدة.. لماذا؟!

في أمسها.. كنت أحبس الـ(لماذا) هذه في سجني الكبير.. سجن (اللماذات) الرهيب. وكنت أحرسها بحذر شديد، خشية أن تفلت إيماءة واهنة منها، فأهلك أنا و(لماذاتي) كلها في آن.

وكان ذلك الأمس صبوراً مثل أحجارها، ومثل صمتي الثقيل، دقات غدها المجلجلة..

كان أمساً بارداً لا يسر الناظرين، معلولاً بلا أنساب ولا ألقاب.. هرسته مطاحن النسيان فتفرق قدداً.. وضيفته أمصال الخوف عنوة، خشية أن ينمو أو يتجدد.. ظلت آثاره جاثية خشية المعصية!

أتذكر الآن، كم كنت خائفاً ووحيداً في ذلك المرمر المر، وكم كنت خائفاً من أصابعي ووجهي ورائحتي.. وكم كنت مملاً في مرآة وجهي الآخر.. وجهي الذي ضاع بين كؤوس الغربة والكتمان..

كنت أكبر من الواقعة، لأن مقاسات اساي رحلت عني كثيراً... وكنت أصغر من قطرة الماء، لأن القحط كان طحيناً أسود.

وكان كل شيء يشير إلى فرجة مؤجلة، وأسى شفيف، أعرق من أصالة دمعة! هكذا جعلتها تخرج من "لماذاتي" في ساعة "شهقة"، عرضها الخيال والحلم. خرجت حارة ولذيذة من ملاذاتها البيض.. صادقة، أصدق من "القطا".. حرة وسائحة مثل طيور الغاق في فيضانات الغربة.

ولكن ساعات الخروج هذه، جعلتني أعود إلى أمسها / أمسي.. وايقظت هودج "الجمل" في فتن الخراب الآن..

ثلاثون صفحة من الأمس، أمسها المجنون والمكابر والمخادع.. تسللت من عيني وأذني وفمي وأصابعي، ومن دمي وفقاعات ذاكرتي الخرساء ثلاثون صفحة من التذكر المريض، شديد العدوى، زحفت على (المدى)، مثل كابونات سرية بريئة، هدرت بقانون الموت مقابل الشقاء!... لقد افتضح أمرك.

جريدة (المدى) اقترحت المساهمة به في مهرجان الصحافة الأول في العراق.. بعثت به كما هو.. لم أرغب بتزويقه أو إضافة أيما شيء عليه.. ذهب كما هو، ففاز بمرارته وأساه، وبحزن الآلاف من العراقيين الذين شيدوا الصالات وشهدوا إنهيارها المعلن.. وغير المعلن!.

عبد الكريم السوداني

لوحة مأساوية لواقع مر

لم يكن التقرير وليد فعل قصدي، بل جاء، إلى حد ما، بالمصادفة. إ ذ أن مقابلة السيد وزير العمل والشؤون الاجتماعية (سامي عزارة آل معجون) فتحت أمامي نافذة أخرى على مآس، اجتمعت في مبنى هذه الوزارة، إذ إن مبنى (دائرة الرعاية الاجتماعي) لا يفصله عن مبنى الوزارة إلا الأسلاك الشائكة والكتل الكونكريتية، ولكن الأجساد التي حدها العوز والحرمان، تبدو كلوحة من خلال نوافذ مبنى الوزارة، لوحة تعبر عن طبيعة قساوة الموضع الحالي.

دخلت المبنى، المطوق بالعشرات من رجال الأمن والشرطة، وإجراءات التفتيش التي لا تستثني أحداً من الداخلين، وما أن تجتاز الحاجز الأمني حتى تتوحد باللوحة المأساوية، ملابس اختفت ألوانها تشف عن أجساد تصارع الحرمان، أياد تحمل ملفات أكلتها المراجعات الطويلة، واقدام لم تعد تقوى على حمل أجسادها، فافترشت الأرض، أو كراسي المقعدين، الكل يبحث عن (راتب الرعاية الاجتماعية)، من أيتام إلى معاقين وأرامل الحروب والمطلقات، والطلبة المتزوجين المشمولين بهذا الراتب هذه الشرائح باختلاطها في باحة المبنى دفعتني لمقابلة (مدير رعاية الأسرة) الذي حدثني عن قصور قانون الرعاية الاجتماعية (١٢٦ لسنة ١٩٨٠)، فضلاً عن حرمان (٧٠ ألف عائلة) من راتبهم البسيط هذا قبل ثلاثة أعوام من سقوط النظام، والآن أعيد العمل به. كان التقرير محاولة لرسم المشهد السابق. لهذا فرحت كثيراً بحصو لي على الجائزة، وزاد فوز زملائي (أحمد سعداوي وعبد الكريم العبيدي)، وحصول جريدتنا على (درع الكلية)، فضلاً عن فوز اثنين من الزملاء (ليث من جريدة الصباح - عن لقائه مع الزميل سكرتير التحرير عبد الزهرة زكي، وفوز الزميل (ضياء مصطفى) من جريدة (الرقيب)، عن حواره مع رسام الكاريكاتير خضير الحميري، وبهذا نكون في (المدى) قد حصلنا على ست جوائز، وليس أربعاً.

تصوير:سمير هادي

في (مائي)

وماذا عن حقوق الناس؟

حسين التميمي

حضرت مرة في شباط هذا العام ضمن من حضر للترشيح أو الانتخاب في المجلس البلدي لمحافظة ديالى، ولم يكن أحد من الحاضرين قد رشح نفسه بعد للمجلس ، وقتها قام أحد الحضور بالاعتراض على الصيغة التي اتبعت في الانتخاب لأنها وحسب رأيه لم تستوف شروط الديمقراطية كونها لم تعتمد على تمثيل شعبي شامل ، بل اعتمدت على طريقة الترشيح عن طريق ملء استمارة انتخابية تعطي الحق لصاحبها في الترشيح أو الانتخاب ، وقد أجابه وقتها أحد أعضاء المجلس بـ : نحن لا نستطيع أن نوفر غطاء أمنياً لكافة أبناء المحافظة ، لذا ارتأينا أن يكون الترشيح عن طريق هذه الاستمارات التي تضمن حداً معقولاً من الديمقراطية ، ويومها أجاب هذا الذي أسميناه بـ (أحد) الحاضرين بالتعليق التالي : أستاذ نحن نفهم أن هناك وضعاً أمنياً متدهوراً وأن الكثير من المخاطر تتهددنا في هذه اللحظة وفي كل وقت ، ولكن إذا استمررنا بالخوف وبالصمت فمن الذي سيعمر هذا البلد ومن الذي سيعيد له عافيته؟.

يومها استقر في ضميري أن أرشح هذا الرجل إن هو تقدم بترشيح نفسه لمنصب عضوية المجلس البلدي ، وفعلا صدقت توقعاتي ، ورشح الرجل نفسه للمجلس وأعطيته صوتي! وأعطاه الكثيرون أصواتهم (حتى أولئك الذين لم يحضروا المأدبة التي أقامها يوم الانتخابات ، أو الذين لم يدفع عنهم ثمن السيارات التي أقلتهم إلى المركز الانتخابي) وفاز الرجل الجريء أخيرا في الانتخابات ، ونمنا في تلك الليلة نوما هانئا لأننا ظفرنا أخيرا بمن سيمثلنا ، ووعدت أطفالي خيرا وقلت لهم لن تضطروا بعد الآن إلى الانزلاق في حفرة من حفر الشوارع القريبة منا والملوءة بالأوساخ وبالمياه ، ولن تشربوا بعد الآن الماء القذر وربما ولدى أبعد لن تنقطع الكهرباء ولن تكون هناك أزمة في الوقود وربما ستنعمون بعودة مصروفكم اليومي لأني سأقترح على مرشحي أن يعيدني إلى الوظيفة التي فصلت منها في زمن الطاغية! كنت أعد أطفالي بالكثير من الإنجازات، والأيام تمر والأطفال يسألونني عما وعدت ، فأوبخهم على قلة صبرهم ونزقهم الطفولي، حتى مرت الأيام تلو الأيام وأنا وصغاري ننتظر وإذا بي أرى مرشحي الهمام وهو يخب أمامي بخطوات متباعدة ومعه رجل آخر، حاولت اللحاق بهما كي أستوضحه عن سر تأخره في تنفيذ الوعود ، لكن المفارقة أني سمعت مرشحي الجميل وهو يحث الرجل الآخر على الصمت والتحلي بالصبر! فكرت أن هذا الرجل المعني بالنصيحة ربما يكون صديقا لمرشحي الفذ وأنه يواجه أمرا خاصا ينبغي معالجته بحكمة وبتأن ، لذا قلت في نفسي سأسير خلفهما بهدوء دون أن اشعرهما بوجودي لأن في الاستماع إلى أحاديث مرشحي ذي العقل النير إغراء لا يقاوم ، لكن المفارقة أني اكتشفت وبعد أن قطعت خلفهما خطوات قليلة أن مرشحي الهمام كان يتحدث مع عضو آخر من أعضاء المجلس البلدي ، وهو بدلا من أن يوجه زميله في الاتجاه الصحيح كان يحثه كي يصمت على ما يراه من فضائح ومصائب! ولم يكتف بهذا بل راح ينصحه بعدم مواجهة فلان الفلاني لأنه يمثل الحزب الفلاني! وعدم مواجهة مدير المديرية الفلانية لأنه ينتمي إلى الجهة الفلانية أو العشيرة العلانية أو العمامة اللاأدرية ، يومها لم يأكل صغاري الطعام الذي أعدته لهم أمهم قبل أن يناموا ، ويومها سألتني زوجتي إن كان صدام قد عاد إلى السلطة حتى يبدوا عليّ الهم بهذه الطريقة ؟ فأجبتها : لا ولكن يبدو أن أشباهه عادوا.

والسؤال الآن هو ، ترى ما حاجة أمثال هؤلاء إلى الترشيح إلى مناصب هم ليسوا أهلاً لها ، ولي في هذا المجال أمثلة عدة على أناس قاتلوا في سبيل الوصول إلى مناصب رفيعة المستوى ، فإذا بهم وبعد أن وصلوا إلى ما يريدون توقفوا مكتفين بالانزواء خلف مكاتبهم (وليذهب الشعب أو الناخبون إلى الجحيم) حتى أن بعضهم صار يمارس أكاذيب السلطة السابقة ذاتها فتراه في مكان ما يعد الناس بأشياء وأشياء ، حتى إذا ما التقى بمن هو أرفع منه في المسؤولية! فهو بدل أن يستغل الفرصة ويوصل أصوات الناس المعذبين المظلومين تراه يمتدح ذلك المسؤول ويؤكد له أن الحال (عال العال) وإن المواطنين يدعون له بطول العمر و العافية وو..إلى آخره ، بذات الطريقة الصدامية المتبعة من قبل عتاة الحزب المقبور متناسيا وعوده التي بذلها قبل قليل ، لمن حملوه أمانة إيصال أصواتهم.

لذا أتمنى أن يمتد بي العمر حتى أرى في يوم ما مسؤولا ما ، يتنحى عن منصبه حال شعوره بوجود ضعف أو خمول في همته أو لياقته التي كان يمتلكها قبل فوزه بالانتخابات وقتها سأغمض عيني وأنا قرير العين مرتاح البال.

لم يبق في بيت الحكمة سوى الجدران

نهبت المكتبة وبيت الملك فيصل ومجلس النواب والأعيان!

كاظم حسوني

في الأيام التي أعقبت سقوط الصنم في التاسع من نيسان في العام الماضي، ما أن تمضي عدة خطوات في ساحة الميدان، حتى تواجهك وتصدم أنظارك رؤية أكداس الكتب من إصدارات بيت الحكمة. مكومة على شكل تلال وإلى جانبها أكياس كبيرة محشوة بالكتب ملقاة على الأرض ربما ينتظر حملها إلى أماكن أخرى، وقد احتلت عدة أماكن وسط سوق الخردة والحاجيات القديمة، لتمثل أمامك صورة مفجعة لخجم الكارثة والدمار الذي حل ببيت الحكمة البغدادي، ولعل ما يلفت كثافة الكتب المنهوبة التي وجدت في الساحة كون موقع البيت لا يبعد عنها إلا بمسافة قصيرة إلى الخلف تجاه ضفة النهر. وإذا ما تابعت المسير باتجاه شارع الرشيد يكون المشهد أكثر إيلاماً، إذ ترى كتب البيت المنكوب قد انتشرت على الأرصفة وابواب المحال وتقاطرت أكداسها إلى الباب الشرقي، وعدة مناطق أخرى ببغداد، وعلى الأرجح أنها وصلت إلى بعض المحافظات. واستمر تدفقها على الأرصفة والشوارع والساحات لعدة أسابيع حيث شوهدت آ لاف المجلدات بمختلف الحقول والاختصاصات معروضة بأسعار بخسة إذ يمكن الحصول على عدد منها بمبلغ لا يعادل ثمن علبة سكائر!، بعد أن نهب بيت الثقافة ذاك بكل ما فيه وما يحتويه من خزانات الكتب والمجلات وأجهزة الحاسوب والأثاث والموروثات التاريخية الثمينة، أثر عمليات السطو والنهب التي استمرت لعدة أيام، ولم يتركوا سوى الجدران المهدمة التي تفصح عما حدث في المكان.

وشروها بثمن بخس!

ولأجل التعرف على المزيد مما حدث كان لقاؤنا بأحد شهود العيان الأستاذ باسم الشريف سألناه أن يحدثنا ويروي مشاهداته لأعمال النهب التي طالت بيت الحكمة فأجاب: في التاسع من نيسان ولعدة أيام تلته، كانت تستوقفني أينما اتجهت خاصة في منطقة باب المعظم، أكداس الكتب المكومة لباعة يجهلون قيمتها من إصدارات بيت الحكمة، وقد انتشرت على شكل أكوام على الأرصفة ووسط الساحات والشوارع والميادين... ولم تخلوا منها أسواق بيع الملابس والأثاث القديمة. وأسواق الخردة والحاجيات المستهلكة، ومداخل الأزقة والمحلات والمقاهي، وامتد انتشارها بامتداد شارع الرشيد مروراً بالرصافي وإلى شوارع وساحات منطقة الباب الشرقي، ولابد أنها وصلت إلى مناطق أخرى لم يتح لي التجوال فيها. ومما يلفت الانتباه أن أعداداً منها وجدت بكثافة في ساحة الميدان المجاورة بمسافة قليلة لبيت الحكمة الأمر الذي أغرى اللصوص ببيعها بنفس المكان.

من جانبي قررت عدم شراء أي منها. برغم أنها بيعت كما تباع أكوام البصل والرقي والباذنجان بأثمان زهيدة تقترب من المجان، لئلا أكون بعملي قد ساهمت في تشجيع باعتها وتحفيزهم على نهب المزيد، بتمشية بضاعتهم المسروقة، وكنت أتمنى لو فعل الجميع مثلي. بالرغم من إغراءات عناوينها التي شدت خيالي بمجلداتها في التاريخ، والفلسفة، والسير، والمعاجم، والشرائع، والترجمات عن العولمة والحضارات، والقوانين، والعلوم، وسواها الكثير الذي لا حصر له في شتى المجالات والاختصاصات.

نشاطاته

إن ما حدث لبيت الحكمة على هذا النحو المأساوي، يمثل خسارة فادحة، لواحد من صروح الثقافة العراقية، وبرغم تعرض بيت الحكمة لمضايقات وضغوط السلطة في الزمن الدكتاتوري بما عهد منها بمعاداتها للأفكار الحرة وكل أشكال الثقافة والفكر، إلا أن البيت برغم الظروف الحرجة التي مر بها دأب على مواصلة نشاطاته العلمية والفكرية والثقافية، مثلما اضطلع بإصدار الكتب المؤلفة والمترجمة في شتى العلوم المعرفية والإنسانية الاقتصادية منها والاجتماعية والقانونية والفلسفية والتاريخية والإسلامية وكذلك إعلام الفكر والسياسة، وأصدر تسع مجلات لكل قسم مجلة تحمل عنوان القسم العلمي، واستمر الإصدار لثلاث سنوات متوالية. إضافة لإقامة المحاضرات والندوات. واتبع البيت تقليداً علمياً بمنح جوائز للعلماء العراقيين ممن أعطوا عطاءاً علمياً أو تربوياً أو فكرياً مميزاً.

هاجس التنوير

يعود تأسيس بيت الحكمة في بغداد إلى ما قبل أكثر من ١٢٠٠ عام، ويعد في الأساس من إبداعات الفترة التنويرية في الحضارة الإسلامية، الفترة التي تؤكد على الانفتاح الحضاري والفكري. كان في البداية عبارة عن خزانة للكتب في قصر الخليفة المنصور مؤسس مدينة بغداد. وكانت هذه الخزانة تضم نتاجات الفكر العالمي، خاصة مؤلفات الطب والفلسفة والمنطق، حيث يشير المؤرخ المسعودي إلى أن المنصور هو أول خليفة عباسي ترجمت له المؤلفات من اللغات اليونانية والفارسية والرومانية إلى العربية، من بينها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند وكتب أرسطو وأقليدس وجالينوس وغيرهم، وتطورت هذه الخزانة لتتحول إلى بيت علمي أيام الرشيد والمأمون، وفي عهد الأخير تحولت إلى مركز بحثي ومؤسسة للبحث والترجمة والحوار والمتابعة. وقد اشتغل في تحقيق هذه الأهداف العلمية والبحثية علماء من اثنيات وأديان عدة. وكان البيت يشتمل على عدة أقسام علمية. يشرف على كل قسم منها علماء متخصصون، فهناك قسم للترجمة والمؤلفات الطبية وآخر لترجمة العلوم الفلسفية. وقسم لعلوم المنطق ومثله في السياسة وعلم النفس والفلك والنجوم.. وكان لبيت الحكمة أثر بالغ في دفع الخلفاء والأمراء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي على تأسيس نماذج مشابهة له من حيث المحتوى والهدف، ففي القاهرة إنشئ بيت حكمة في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م سمي (دار الحكمة) كذلك تأسس في القيروان سنة ٣٩٥هـ / ٩٠٧م في تونس بيت للحكمة أسسه الأمير الأغلبي زيادة الله الثالث. وتأسست في طرابلس الشام في عهد حكم أسرة آل عمار دار للحكمة سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م. وامتد التأثير فأقيم بيت للحكمة في الأندلس الذي أسسه الخليفة الحكم المستنصر في قرطبة. وغيرها بمناطق أخرى في العالم الإسلامي.

سرقة بيت الملك فيصل الأول

حملنا عدداً من الأسئلة للتحقق عن حجم الأضرار التي لحقت ببيت الحكمة وتوجهنا إلى الدكتور عبد الجبار الياسري / رئيس قسم الدراسات التاريخية. سألناه أن يحدثنا عن تفاصيل ما جرى. فأجاب: في صبيحة يوم سقوط الطاغية في ٩ نيسان. تعرض البيت إلى هجوم مسلح سلب ونهب ودمر. مستهدفاً جميع مصادر الثقافة وتراث الأمة، وتواصلت موجات السلب والنهب قرابة ستة عشر يوماً، فلم يبق فيه كتاب، أو مجلة أو وثائق أجنبية، ووثائق الطابو والتسوية والأوقاف والمحكمة الشرعية ووثائق الممثليات العراقية في الخارج، فضلاً عن نهب المكتبة التي كانت تضم آلاف المجلدات في شتى الميادين والمخطوطات والملفات الشخصية وأجهزة الحاسوب والورق وامتد إلى بيت الملك فيصل الأول وغرفته الخاصة ومخلفاته الأثرية، ومجلس الأعيان والنواب، ولم تسلم الجدران والسقوف بما تحمل من صور وخرائط ومصابيح وثريات. حتى تدمر البيت تماماً وتحول إلى خراب ونقاض.

*وماذا بشأن الإعمار. وكيف تنظر إلى مستقبله؟

- نحن كما نرى في بناية مجاورة للبيت، بانتظار إعادة إعماره، حيث تعهدت إحدى الشركات الأجنبية بتنفيذ هذه المهمة. ربما تعثر عملها. لدواعي فقدان الأمن وما يجري من أحداث، لكننا نأمل أن نعيد للبيت تراثه السابق، ودوره السابق لجعله إنموذجا رائداً، وأن يحتل دوره في مرحلة البناء الاجتماعي والمدني والحضاري للباحث العراقي. وأن يستعيد القصر العباسي مكانته (قصر المسناة) الذي بناه الخليفة الناصر لدين الله ٥٧٦هـ/ ١١٨٧م ليكون مدرسة علم وحوار، ونأمل بناء خزانة الحكمة وهو مشروع عملاق على غرار مكتبة الإسكندرية في مصر. وقد قدمنا مشروعاً كبيراً لإحياء خزانة الحكمة ومؤسسات ملحقة بها نظير: قبة فلكية / مرصد فلكي / مركز لدراسات اللغات القديمة / مركز لتحقيق النصوص والوثائق / مطبعة / دار للترجمة تعمل على حشد جميع المؤلفات اليونانية المترجمة / قاعات للبحث والدراسة / أجنحة لبيت القادمين من العالم لتعلم اللغات العراقية القديمة / ومنشآت أخرى.

تصوير:سمير هادي